

الفصل الثامن

النابعة الذبياني

١

قبيلته

النابعة من قبيلة ذبيان الغطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان، وإلى بغيض تنتسب أيضًا قبيلة عبس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فزارة وبنو مرة وبنو سعد، ومن فزارة بنو مازن، وبنو بدر وفيهم كانت رئاسة فزارة في الجاهلية، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حمل. ومن بني مرة بنو غيظ وبنو سهم وبنو صرمة وبنو خصيلة وبنو نشبة وبنو يربوع عشيرة النابعة، وسيدًا بني مرة غير مدافعين هرم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحًا زهير بن أبي سلمى.

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب داحس والغبراء التي نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيها يقول الرواة نحو أربعين عامًا امتدت فيما يُظن من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد. ومر بنا أن السبب في نشوبها سباق داحس والغبراء، وكان داحس جوادًا لقيس بن زهير سيد بني عبس، وكانت الغبراء فرسًا لحمل بن بدر سيد بني فزارة. وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كمينًا في نهاية الشوط نفره عن غايته، فسبقت الغبراء. واستشاط قيس غضبًا، وطلب الرهان، وبعث حمل ابنه يطلب منه الرهان المضروب - وقتله قيس. فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين، واشترك فيها أحلافهما، فكان مع عبس بنو عامر، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد، ودارت سلسلة معارك طاحنة، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان، وفيه قتل عنزة ضمضما أبا حصين المري والحارث بن بدر، ومن قتل فيه أيضًا عوف بن

بدر، ويوم ذي حسي وكان لذيبيان على عبس، ويوم جفر الهباءة وكان لعبس على ذيبيان وفيه قتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حاراً، يقول في بعضه^(١):

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيت بقتلهم لغيل صدي ولكني قطعت بهم بناني

وثارت ذيبيان لنفسها في معركة الجراجر أو ذات الجراجر. ثم تجمعت ذيبيان وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر، واشتبكت الفتتان في يوم شعب جبلة، وفيه دارت الدوائر على ذيبيان وأحلافها، وإذ أثخت فيهم عبس وعامر القتل فقتل لقيط بن زرارة التميمي وأسر أخوه حاجب. ولم تلبث ذيبيان أن أوقعت بعبس وعامر في يوم شعواء وقعة منكرة. ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على الأبطال والرجال، فأرسلت وفداً إلى ذيبيان يطلب الصلح، ولقي الوفد سيدي بني مرة: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، فحملاً قومهما على الصلح، وتحملًا ديات القتلى، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير. وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها، ويظن أنه لم يكتب للنابعة أن يرى انفضاضها، فقد توفي قبل ذلك بقليل.

وبينما كانت ذيبيان تدير رحي هذه الحروب كانت تدير رحي حروب أخرى مع الغساسنة، وكان يؤازرها أحلافها من بني أسد، ولعل في ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة، فهم يشرعون سيوفهم ويشهرونها في وجوه خصومهم، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتلئ أيدي الغساسنة بأسراهم، مما اضطر النابعة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء السرى حريتهم.

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذيبيان لم تكن دائماً في رفاق ووئام، فهي تتجمع لحرب عبس والغساسنة، ثم تعود فتتناحر داخلياً، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشامة بن الغدير والحصين بن الحمام المري وزبان بن سيار الفزاري والنابعة، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر،

(١) عيون الأخبار ٨٨/٣ والمرزوقي على الحماسة ٢٠٣/١ وسمط الآلي للبكري ٣٠٥.

وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها، فمن ذلك قول الحصين بن الحمام عقب معركة بين عشيرته بني سهم وبين بني صرمة، وفيها انتصر الأولون^(١):

صَبَرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ فِينَا سَجِيَّةً بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمِعْصَمًا
يُقْلَقْنَ هَامًا مِنْ رُجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمًا

ونجد يزيد بن سنان أخي هرم بن سنان يطلق زوجته، وكانت حلفاً سمي حلف المحاش، وما يزال يربوع حتى يجليها عن ديارهم إلى ديار بني عذرة، وفي ذلك يقول النابغة:

جَمَعَ مُحَاشُكَ يَا يَزِيدُ فَإِنِّي أَعَدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُمْ وَتَمِيمًا
حَدَبْتُ عَلَيَّ بَطُونَ ضِنَّةٍ كُلِّهَا إِنَّ ظَالِمًا فِيهِمْ وَإِنْ مَظْلُومًا^(٢).

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائمًا، بل كثيرًا ما كانت تتحارب وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضًا، وقد ترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عذرة وغير عذرة.

وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد في الجاهلية العزى وتتخذ لها كعبة تحج إليها، وتقدم لها النذر والقرايين، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم. ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيها حتى دخلت في الإسلام الحنيف.

(١) الفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥ والهام: الرؤوس.

(٢) ضنة: عشيرة من عذرة.

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب^(١) بن يربوع، وأمه عاتكة بنت أنيس من بني أشجع الذبيانين، فهو ذبياني أبا وأما، وكان يكنى بأبي أمامة وأبي ثمامة^(٢)، وهما ابتناه، كما كان يلقب بالنابغة، وبهذا اللقب اشتهر. واختلف الرواة في سبب تلقيبه به، فقيل لقوله في بعض شعره: (فقد نبغت لنا منهم شئون) وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتر ويذهب عقله^(٣). ونظن ظناً أنه سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقب بنفس اللقب مثل النبغة الجعدى والنابغة الشيباني والنابغة التغلبي، ويميز هو منهم باسم النابغة الذبياني.

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشرف ذبيان وبيوتاتهم، وقد يكون في مصاهرة يزيد أخي هرم ابن سنان له وهو من أشرف ذبيان ما يقطع بذلك. وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن في شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثاني من حياته، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة^(٤) ولزومه له يمدحه ويتغني بمناقبه. ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة، وكانت تدخل ذبيان في هذا الولاء، فطبيعي أن يقصد شاعرها النابغة النعمان بن المنذر وأن يضيف عليه مدائحه. وسر النعمان بوفوده عليه، فقربه منه ونادمه، وأجزل له في العطايا والصلات، حتى

(١) هكذا في ترجمته بالأغاني (طبعة دار الكتب) ٣/١١ وفي شرح التبريزي للمعلقات العشر جابر بن يربوع بدلاً من جناب بن يربوع.

(٢) أنظر الأغاني ٣/١١ وترجمته في الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها.

(٣) الأغاني ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء ١٠٨/١ وشرح المعلقات الشعر التبريزي.

(٤) واضح أننا لم نعتد بها ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها: أثاركة تداولها قطام وضنا بالتحية والكلام وأغلب الظن أنها منتحلة عليه، هي ليست على كل حال في رواية الأصمعي للديوان، وروى الشنمري عن أبي عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث الغساني.

أصبح شاعره الفذ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حجر التميمي والمثقب العبدى وليد العامري ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة، وقد صور ذلك في معلقته، إذ يقول:

الواهب المائة المعكاء زينها سعدان توضح في أوبارها اللبد^(١).
والأدم قد خيست فتلا مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد^(٢).
والراكضات ذيول الريط فانقها برد الهواجر كالغزلان بالجرد^(٣).
والخيل تمزغ غرباً في أعنتها كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد^(٤).

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذلة كما كان يعطيه القطيع من الخيل، غير الجواري المنعمات. على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه تواً إلى بلاط الغساسنة، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بني أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادي أقر الخصيب، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل، وارتادته ذبيان وأسد، فنكلوا بهما تنكيلاً فظيعاً، سبوا كثيراً منها ومن نسائها. فألم النابغة ألماً شديداً صورة في قوله:

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر^(٥) وعن تربعهم في كل أصفار^(٥).
وقلت يا قوم إن الليث منقبض^(٦) على برائنه لوثة الضاري^(٦).
لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها كأن أبكارها نعاج دوار^(٧).

(١) المعكاء: الغلاط القوية، ويريد الإبل. توضح: موضع. السعدان: مراعى. لبد الشعر: ما تلبس منه.

(٢) الأدم: النوق البيض. خيست: ذلت. فتلا مرافقها: كناية عن قوة خلقها ومتانتها.

(٣) الراكضات: الساحبات. الريط: ثوب طويل. فانقها: نعمها. الجرد: موضع.

(٤) تمزغ غرباً: تسح سحاً شديداً. الشؤبوب: السحاب أو دفعات مطره.

(٥) أقر: واد. تربعهم: إقامتهم وقت الربيع. أصفار: شهور الربيع جمع صفر.

(٦) البرائن: الأظفار. الضاري: متعود الافتراس.

(٧) الربرب: القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به. حوراً: جمع حوراء، وهي العين الجميلة واضحة البياض والسواد. النعاج: إناث البقر. دوار: اسم صنم كن يطفن به في الجاهلية.

يَنْظُرُونَ شَزْرًا إِلَى مَنْ جَاءَ عَنْ عَرَضٍ بِأُوجِهِ مَنَكَرَاتِ الرِّقِّ أَحْرَارٌ^(١).
يَذَرِينَ دَمْعًا عَلَى الْأَشْفَارِ مَنْحَدَرًا يَأْمُلْنَ رَحْلَةَ حِصْنٍ وَابْنَ سَيَّارٍ^(٢).

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يمينًا وشمالًا، لعل بطلَي قومهما حصن بن عيينة وزبان بن سيار يقدمان بالجيش، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار، وفي بعض الروايات أنه كان بينهما إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد، فقال في قصيدة أخرى مصورًا ما أصابهم من الجهد والبلاء:

لَمْ يَبْقَ غَيْرُ طَرِيدٍ غَيْرِ مُنْفَلِتٍ وَمَوْتٌ فِي حِجَالِ الْقَدِّ مَسْلُوبٍ^(٣).
أَوْ حُرَّةٌ كَمَهَاةِ الرَّمْلِ قَدْ كَبِلَتْ فَوْقَ الْمَعَاصِمِ مِنْهَا وَالْعَرَاقِيبِ^(٤).
تَدْعُو قُعَيْنًا وَقَدْ عَضَّ الْحَدِيدُ بِهَا عَضَّ الثَّقَافِ عَلَى صُمِّ الْأَنْيَابِ^(٥).

ولم يجد النابغة بداً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم، حتى يكفوا عن قومه، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم، فنزل بعمر بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة، ومدحه مدحًا رائعًا كما مدح أخاه النعمان. وأكبرا سفارته لديهما، فعقوا عمن أسراه، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما، وظل عندهما يبالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم. وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً في بني ضنة العذريين وعشائرها من بني حن، فتوسع لهم في ديارها ومراعيها، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم، فتعرض له النابغة يخوفه منعتهم ومنعة ديارهم، ولما رأي منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بني حن، فأعانتها ومنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة، وفي ذلك يقول:

(١) النظر الشذر: النظر بمؤخر العين. عرض: جانب.

(٢) الأشفار: جمع شفر، وهو هذب العين.

(٣) القد: شراك كانوا يشدون به الأسير.

(٤) المهاة: البقرة الوحشية. المعصم: موضع السوار.

(٥) قعين: عشيرة من أسد. الثقاف: خشبة تقوم بها الرماح. الأنابيب: كعوب الرماح.

يريد بني حن بركة صادر^(١).

كرية وإن لم تلق إلا بصابر^(٢).

لها ميم يستلونها بالحناجر^(٣).

بجمع مبير للعدو المكاث^(٤).

لقد قلت للنعمان يوم لقيته

تجنّب بني حن فإن لقاءهم

عظامُ اللهِي أولادُ عُدرةٍ إنهم

وهم منعوا وادي القرى من عدوهم

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفي عمرو ثم أخوه النعمان، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً، إذ كان يتخذة داعية له في قومه، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذيان إلى أن تخرج على ولائها له، فهذا شاعرهما وشريفها النابغة يلج في مديح خصومه. وكأنه يلعن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم. وبذلك كان ذنب النابغة عظيماً، وقد أخذ يدفع عن نفسه في اعتذاراته المشهورة التي قدمها إلى النعمان، فعفا عنه، وعاد إلى بلاطه من جيد، وحظي برضاه ونائله الغمر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد، وألقى به في غياهب السجن حتى مات، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة.

وواضح أننا لم نأخذ بالروايات^(٥) التي رواها القدماء في سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاء به هجاء مقذعاً، وفي بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير الفرند والجوهر، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه. وفي رواية أن النابغة وصف زوج النعمان

(١) بركة صادر: موضع.

(٢) صابر: شجاع في الحرب.

(٣) اللهِي هنا: المال. هاميم: جمع لهموم وهو الضخم العظيم. يستلونها: يتلعونها، يصفهم بعضهم بالحقوق وكثرة الأكل وضخم الأجسام.

(٤) مبير: مهلك.

(٥) الأغاني ١١/ ١٢ وما بعدها وأنظر ترجمته في الشعر والشعراء.

المتجردة وصفًا استقصى فيه أعضائها، فغار منه المنخل الإشكري وكان يهواها، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرب، فغضب النعمان، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة. وسنرى فيما بعد أن قصيدته في المتجردة موضوعة.

وفي الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جني جنابة عظيمة، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم، وقد كان يهم النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية. فلم عاد إليه يطلب الصنفح والعفو، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات^(١).

ونعتقد أن سفارته لقومه في بلاطي المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حروب داحس والغبراء، إذ لم يشترك في وقائعها. ومع ذلك نراه في بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتهما من ذبيان، يقول:

أَبْلَغُ بَنِي ذُبْيَانَ أَنْ لَا أَخَا لَهُمْ بَعْبَسٌ إِذَا حَلُّوا الدَّمَاحَ فَأَظْلَمُ^(٢).
هُمْ يَرُدُّونَ الْمَوْتَ عِنْدَ لِقَائِهِ إِذَا كَانَ وَرَدَ الْمَوْتُ لَا بُدَّ أَكْرَمَا

وكأنه يحرض قومه أن يعودوا إلى السلم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم، ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغناء في الحروب. وليس في شعره أي إشارة لوعيد أو تهديد لعبس، وكأنه كان يبقى على القربى والرحم بينه وبينها، فهو لا يتوعددها غارة ولا يندد بالوقائع التي انتصرت فيها قبيلته. ولكن إذا كان قد ترك عبسًا فقد تعرض لعامر حليفها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زرعة بن عمرو وعامر بن الطفيل بغارات شعواء لقومهما تسبى فيها الأطفال والنساء. وحاول زرعة وبعض بني عامر أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تحضن الدماء، وعلم النابغة بذلك وأن عيينة بن حصن وبعض الذبيانين يفكرون في الأمر، فتولى

(١) أغاني ٢٩/١١.

(٢) الدماخ: جبال. أظلم: موضع. يشير بها إلى منازل بني عامر.

غضباً ينشد القصائد مسفها بني عامر وعيينة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد من العهود والعقود، وفي ذلك يقول قصيدته:

قالت بنو عامر خالوا بني أسد يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّاراً لأَقْوام^(١).
يَأْبَى البلاءُ فلا نَبْغي بهم بدلاً ولا نريد خِلاءً بعدَ إحكام^(٢).

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً في قصيدة أخرى، يقول في تضاعيفها:

إذا حاولتَ في أسدٍ فجوراً فإني لستُ منك ولستَ مني

وهو موقف يدل على نبذه وحرصه على الوفاء، ويدخل في ذلك مدحه لبني أسد وإشادته بشجاعتهم وبلائهم في الحروب.

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيّداً شريفاً من سادات قومه، فهو لا يتفتى تفتى امرئ القيس وطرفة وأضرابها، بل يتراءى سيّداً وقوراً ذا خلق وشيم كريمة، فهو لا يتدنّى في سفاهة ولا يتبذل في مجون. وفي أشعاره بعض إشارات مسيحية، وقد جاء ذلك من إقامته الطويلة في الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه استمع إلى بعض ما يقوله الأخبار والرهبان، ولكن لا شك في أنه كان على دين آبائه يتعبد العزى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة، وفي معلقته:

فلا لعمرُ الذي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وما هُرِّيقَ على الأنصاب من جَسَدٍ

فهو يقدس الدماء التي كانت تصب على الأنصاب.

وكان فيه حكمة، وهي مبثوثة في شعره، ويقول ابن حبيب نه ممن حرم الخمر والأزلام في الجاهلية^(٣). وهو بذلك كله يبدو سيّداً وقوراً. ويظهر أنه نال شهرة واسعة في عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً في داخل الجزيرة وبين الشعراء، إذ كانوا يعرضون عليه في

(١) خالوا: من المخالاة وهي نقض العهد.

(٢) البلاء: يقصد بلاءهم معهم في الحرب. الخلاء: نقض العهد كالمخالاة.

(٣) المحبر لابن حبيب (طبع حيدرآباد) ص ٢٣٨.

المواسم والأسواق أشعارهم. قال صاحب الأغاني: "كان يُضرب للنابعة قبة من آدم بسوق عكاظ، فتأتيه الشعراء، فتعرض عليه أشعارها. وحدث ذات مرة أن أنشدته الأعشى أبو بصير، ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وإن صخرًا لتأتّم الهداة به
كأنه علم في رأسه نار^(١).

فقال: والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفًا لقلت إنك أشعر الجن والإنس، فقام حسان فقال: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك، فقال له النابعة: يا بن أخي أنت لا تحسن أن تقول:

فإنك كالليل الذي هو مُدركي
وإن خلت أن المتأى عنك واسع
خطايف حجن في حبال متينة
تمدّ بها أيدٍ إليك نوازع^(٢).

فخس حسان لقوله^(٣). وفي رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا؟ قال: حيث أقول:

لنا الجفّنات الغرّيلَمَعْنَ بالضّحى
وأسيافنا يَقْطُرْنَ من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما^(٤).

فقال له النابعة: أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(٥). وأكبر لظن أن هذه الزيادة في تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون

(١) العلم هنا: الجبل.

(٢) خطايف: جمع خطاف وهو حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن: جمع حجناء وهي المعوجة. نوازع: جواذب. ويقصد قصائده التي يستعطفه بها.

(٣) أغاني ٦/١١.

(٤) العنقاء: جد الخزرج الأول. محرق: هو الحارث بن جبلة الغساني، ومعروف أن الغساسنة كالخزرج من الأزد، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه.

(٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤٠/٩ والموشح للمرزباني ص ٦٠.

إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال في مع التكسير يدلان على القلة. وفي الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء، بل لقد افتخر بالآباء، وإن كان عبر بكلمة ولدنا، فهي مباحكة لفظية، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المباحكة والمغالطة. والمهم في الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره.

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً، فليس في أشعاره أي شيء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدي قبيلته: هرم بن سنان والحارث بن عوف في حقن الدماء بما تحملاً من ديات، ومن ثم كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفي سنة ٦٠٤.^(١)

(١) شعراء النصرانية ص ٦٤٠.

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له في المحبة الآسيوية (١٨٦٨-١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشنتمري للدواوين الستة، وهي دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة. وسبق أن قلنا في حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعي لتلك الدواوين، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين. وقد اعتمد ديرنبورج في نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمري وجددهما في باريس ومخطوطة ثالثة وجددها في فينا وهي بشرح البطليوسي. وقد نشر في سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان في المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة في مجموعة في مجموعة شيفر وجددها زيادات جديدة.

ونشر الديوان آلود في مجموعة الدواوين الستة التي عنى بها الشنتمري، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمري، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجدده منسوباً في كتب الأدب إلى كل منهم، وقد نشر الديوان في القاهرة مع هذه الدواوين، ولكن لا بشرح الشنتمري وإنما بشرح البطليوسي. ونشر نشرة أخرى باسم "التوضيح والبيان عن شعر نابغة بني ذبيان" وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ٩١٠. ونشر في بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب، وهي دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائي وعلقمة الفحل. وقد نشره لويس شيخو في مجموعته "شعراء النصرانية" معتمداً على نشرة آلوارد. ونشرة مصطفى السقا في مجموعته "مختار الشعر الجاهلي" وهذه المجموعة كما مر بنا هي نفسها مجموعة الدواوين الستة التي عنى بها الشنتمري، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه، فقد اختصره، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التي بثها الشنتمري فيه. وفي دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح. وفي مكتبة أحمد الثالث باستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك في مكتبة فيض الله

مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزي. والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية.

ونسند في دراستنا للشاعر على شرح الشتمري، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعي أوثق رواة الشعر الجاهلي، وهي تنتهي عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشتمري بعقبها: "كامل جميع ما رواه الأصمعي من شعر النابغة، ونصل به قصائد متخيرة مما رواه غير الأصمعي إن شاء الله تعالى" وهي سبع قصائد رواها عن الطوسي، وهو إنما يروي عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعي أستاذ البصرة والبصريين. وكأن الأصمعي كان يشك فيها أو كان ينكرها، ولذلك لم يثبتها في روايته، ومن ثم لا نستطيع أن نعتمد عليها في دراسة النابغة، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعي، ونتخذ أساساً لبحث الشاعر وشعره.

على أننا لا نكاد نمضي في رواية الإصمعي حتى نجد لها في حاجة إلى مناقشة، فإن الإصمعي احتفظ فيها بقصيدته في المتجرده: (أمن آل مية رائح أو معتد) مع أنه كان لا يسند لها كما يقول الشتمري. ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية. ونحن لا نقرؤها حتى نجد لها تتضمن غزلاً مفحشاً، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة الوقور. ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً في شعر النابغة لأمكن أن نقبلها، ولكنه يأتي شذوذاً في هذه القصيدة، ليدل - كما مر في غير هذا الموضع - على خبر مصنوع، وضعه الرواة ليفسروا به السبب في غضب النعمان بن المنذر على النابغة، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل الماجن الذي يندي له الجبين، وكأنها ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج النعمان. ولو أن الرواة كانوا متعمقين في فهم العصر الجاهلي وما كان فيه من منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة، بل لو أنهم تعمقوا في درس شعر النابغة لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة، بل لقد هزموهم هزيمة منكرة. وبذلك فقد النعمان داعيته في ذبيان، وغضب عليه غضباً شديداً. وما زال النابغة عندهم، ليرد كيدهم عن قومه، حتى إذا دار الزمن وتوفي خصماً ذبيان من الغساسنة، وهما عمرو وأخوه النعمان، رأي النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن المنذر، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة، بل

خوفاً من تأليه القبائل على قبيلته. فالموقف كله كان موقفاً سياسياً، ولم يكن موقفاً شخصياً، ولذلك كنا نرد قصيدة المتجردة، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين علم بمرضه، ومن ثم كنا نشك في قصيدته الرائية التي يقول فيها:

ألم تر خير الناس أصبح نعشه
على فتية قد جاوز الحي سائراً
ونحن لديه نسأل الله خلوده
يرد لنا ملكاً وللأرض عامراً

فإن الرواة وضعوها وضعاً، ليصوروا لنا النعمان عليلاً، ونفس أسلوبها وما في نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية، ومن ثم ننكرها كما ننكر مقطوعته التي تتصل بمرض النعمان والتي يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلاً في مطلعها:

ألم أقسم عليك لتخبرني
أحمول على النعش الهمام
وأيضاً فإننا نشك في قصيدته:

لعمرك ما خشيت على يزيد
من الفخر المضلل ما أتاني

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي حين أصاب إبلا للنعمان، وكلاب عشيرة من عشائر بني عامر، وهي قيسية مضرية، ومع ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يميناً إذ يقول في نهايتها: (ولكن لا أمانة لليمان) وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمينى، وكأنها القافية أعوزت في البيت متحلله، بل متحلل القصيدة فدعاه يميناً ونسبه إلى ايمن. ومن القصائد التي جاءت في رواية الأصمعي ويملأنا الشك فيها قصيدته:

بانت سعاد وأمسى حلبها أنجذما
وأحتلت الشرع فالأجزاء من إضمما

لأنها نسب خالص، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح في قوله مخاطباً صاحبه:

حياك ربي فإننا لا يحل لنا
لهو النساء وإن الدين قد عزمنا^(١).
مشمرين على خوص مزمنة
نرجو الإله ونرجو البر والطعما^(٢).

(١) الدين هنا: الحج. يريد أنهم عزموا عليه. فهو من باب القلب في التعبير.

(٢) مشمرين: جادين. الخوص: الإبل غائرة العيون. مزمنة: مشدودة بأزمته ورحالها. الطعم هنا: الرزق.

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد في رواية الأصمعي ونبقى على سبع عشرة، ومع إبقائنا عليها لا نخليها من بعض أبيات أدخلت في روايتها، فمن ذلك قصيدته العينية التي يعتذر فيها للنعمان، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضي على هذا النحو:

لعمري وما عمري على بهين	لقد نطقت بطلاً على الأقارع ^(١) .
أقارع عوفٍ لا أحاول غيرها	وجوه قروءٍ تبتغي من تجادع ^(٢) .
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضة	له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب	ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله	ولو كبلت في ساعدي الجوامع ^(٣) .

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب في هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خفاف نظما هجاء في النعمان على لسانه، فلما علم به فر على وجهه. ونحن ننفي هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحاً. ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التي جاءت في معلقته والتي يقول فيها عن النعمان بن المنذر:

ولا أرى فاعلاً في الناس يشبهه	ولا أحاشي من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فاحدها عن الفند ^(٤) .
وخيس الجن إني قد أذنت لهم	يينون تدمر بالصفاح والعمد ^(٥) .
فمن أطاعك فأنفعه بطاعته	كما أطاعك وادله على الرشد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهي الظلوم ولا تقعد على ضمد ^(٥) .

(١) الأقارع: بنو قريع بن عوف.

(٢) تجادع: تشاتم. ولفظ وجوه منصوب على الذم.

(٣) كبلت: وضعت. الجوامع: الأغلال.

(٤) أحدها: أمنعها. الفند: الخطأ في القول والفعل.

(٥) خيس: ذلل. تدمر: مدينة الزباء في بادية الشام. الصفاح: حجارة عراض. العمدة: أساطين الرخام.

إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد إذا استولى على الأمد^(١).

وواضح أنه يسترسل في الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية، وقد كان وثنيًا على مذهب قومه، وبحق رأي طه حسين أن الأبيات أقحمت على المعلقة إقحامًا^(٢). وقد نسبت إلى النابغة أبيات في غير رواية الأصمعي يقول فيها معتذرًا إلى النعمان:

أتيتك عاريًا خلقًا ثيابي على خوفٍ تظن بي الظنون

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

ونفي الجللحظ^(٣) وابن سلام^(٤) أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر، وكأنهما أحسا ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة. ومثلها في المعلقة الأبيات التالية التي تصور فطنة اليمامة وعددها الدقيق لحمام طائر في مضيق من الهواء يجعله يشتد في طيرانه ويسرع إسراعًا:

احكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام شراعٍ وارد الشمد^(٥).

يحفه جانبًا نيقٍ وتتبعه مثل الزجاجاة لم تكحل من الرمد^(٦).

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا ونصفه فقد^(٧).

فحسبوه فألفوه كما حسبت تسعًا وتسعين لم تنقص ولم تزد

(١) الضمد: الغيظ وشدة الغضب.

(٢) الأمد: الغاية التي تجرى إليها الخيل. والبيت معلق بما قبله أي لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك في الناس أو قريب منك.

(٣) في الأدب الجاهلي ص ٣٣٧ وما بعدها.

(٤) الحيوان ٢/ ٢٤٦.

(٥) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩-٥٠.

(٦) فتاة الحي: زرقاء اليمامة. شراع: مجتمعة. الشمد: الماء القليل.

(٧) يحفه: يحيط به. نيق: جبل. وجعل الحمام يمر في جانبي نيق لأنه إذا مر في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء. وشبه عين زرقاء اليمامة بالزجاجاة في صفائها. لم تكحل من الرمد: لم يصبها رمد فتكحل منه.

(٨) قد: حسب.

فكملت مائة فيها حمامتها وأسرعت حسبة في ذلك العدد

وهي أبيات واضحة الانتحال. ونحن بعد ذلك نصحح بقية المعلقة، كما نصحح قصائده ومقطوعاته الأخرى التي جاءت في رواية الصمعي باستثناء ما اهتمناه.

شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى، فهؤلاء الأربعة في رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية^(١)، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم، وأن الأربعة حقاً هم المجلون السابقون في اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم في فنونه المختلفة.

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب في ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التي اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوي له اللفظ المونق والديباجة الجزلة. وقد أتيح له أن يعيش في بيئتين متحضرتين هما الحيرة وبلاط الغساسنة، فرق ذوقه وسهل منطقته ولفظه، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغبابة هذه اللغة.

وقد وقف القدماء طويلاً عند إجادته لفنى المديح والاعتذار، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم، وكان في غنى عن هذا القبول. "قيل لأبي عمرو بن العلاء: أفمن مخافة النعمان بن المنذر امتداحه النابغة وأتاه بعد هربه منه لغير ذلك؟ فقال: لا، لعمر الله ما لمخافته فعل، إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشاً، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده، لا يستعمل غير ذلك"^(٢).

وببعد في رأينا أن يكون قد وفد على أبي النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعي يخلو من مديحهما. أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غض منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا، فقد كان سفيرها في

(١) أنظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها.

(٢) أغاني ٢٩/١١ وما بعدها.

بلاطهما. وحقاً إنه يبالغ في مديحه واعتذاره، ولكنها مبالغة لا تنتهي إلى ذلة نفس، بل هي المبالغة التي تأتي من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته.

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغساني، وهو يقدم لراثه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان في الصحراء وصيده. وأيضاً ففي شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته وأحلافها من بني أسد وأعدائها من بني عامر، وبعبارة أخرى في شعره فخر وهجاء، وفي تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة، وما يدل على وفائه وصدق مودته.

ونحن لا نلم بمديحه للغساسنة حتى نؤمن حقاً بأنه كان شاعراً بارعاً، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع في معانيه وكيف يستم صوره. وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم، يقول:

كليني لهم يا أميمة ناصب	وليل أفاقيه بطي الكواكب ^(١)
تطول حتى قلت ليس بمنقض	وليس الذي يرعى النجوم بأيب ^(٢)
وصدر أراح الليل عازب همه	تضاعف فيه الحزن من كل جانب ^(٣)

فهو محزون في أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع في قبضة الغساسنة من أسرى قومه، ونراه يصور طول الليل وهمه فيه تصويراً بديعاً، فالكواكب بطيئة لا تجرى، حتى ليظن أن الصباح الذي يرعى النجوم بأضوائه ويحصد حصاداً لن يؤوب، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزن. وهي براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور.

(١) كليني: دعيني. ناصب: متعب. بطي الكواكب: كناية عن أنها لا تغور ولا تمضي.

(٢) أيب: راجع. وأراد براعي النجوم الصباح.

(٣) أراح: رد. العازب: البعيد.

وقد خرج من ذلك تَوْأ إلى مدح عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية، وأطال في هذا التصوير قائلاً:

عصائب طير تهتدي بعصائب ^(١) .	إذا ماغزوا بالجيش حلق فوقهم
من الضاريات بالدماء الدوارب ^(٢) .	يصاحبنهم حتى يغرن مغارهم
جلوس الشيوخ في ثياب المرائب ^(٣) .	تراهن خلف القوم خزرًا عيونها
إذا ما التقى الجمعان أول غالب ^(٤) .	جوانح قد أيقن أن قبيله
إذا عرض الخطى فوق الكوائب ^(٥) .	لهن عليهم عادة قد عرفنها على
بهن كلوم بين دام وجالب ^(٦) .	عارفاتٍ للطعان عوايبسٍ
إلى الموت إرقال الجمال المصاعب ^(٧) .	إذا استنزوا عنهن للطعن أرقلوا
بأيديهم بيض رفاق المضارب ^(٨) .	فهم يتساقون المنية بينهم
ويتبعها منهم فراش الحواجب ^(٩) .	يطير فضاضًا بينها كل قونس
بهن فلول من قراع الكتائب ^(١٠) .	ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
إلى اليوم قد جربن كل التجارب ^(١١) .	تورثن من أزمان يوم حليلة

(١) عصائب: جماعات.

(٢) الضاريات: المتعودات. الدوارب: المدربة.

(٣) خزر العيون: جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه. المرائب: ثياب سوداء.

(٤) جوانح: مائلات للوقوع.

(٥) الخطي: الرماح. الكوائب: القربوس.

(٦) عارفات: صابرات. كلوم: جروح. دام وجالب: مدم ومتجمد عليه الدم.

(٧) أرقلوا: أسرعوا. المصاعب: النافرة.

(٨) بيض: سيوف.

(٩) فضاضًا: متفرقًا. القونس: أعلى الرأس. فراش الحواجب: عظامها.

(١٠) فلول: ثلوم. قراع: مضاربة.

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الجباحب^(١).

بضرب يزيل الهام عن سكناته وطعن كإيزاغ المخاض الضوارب^(٢).

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة، تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله:

وترى الطير على آثارنا رأي عين ثقة أن ستمار^(٣).

غير أن النابغة فصل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفًا دقيقًا، فالنسور والعقبان خزر العيون، وهي تشبه في ألوانها ثياب المرانب السوداء التي يلبسها الشيوخ، وهي تسير خلفهم موقنة بأنها لا بد أن تجد زادها من أعدائهم، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد، وهي لذلك لا تزال جانحة، عادة عرفتها فيهم لا يخلفونها ولا يمتطونها. وقد أعجب القدماء طويلاً بهذه الصورة عند النابغة، فتعاور عليها الشعراء، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته^(٤). ويمضي النابغة فيصور شجاعة الجيش، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم. ونلاحظ هنا الدقة في الوصف، وهي دقة استتبع ضرباً من الطباق. وقد صورهم يتساقون كتوس المنية، كناية عن جرأتهم في الحرب واقتحامهم لأهوالها، ثم صور كيف يتخونون في أعدائهم، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد، وهو ليس في حقيقته عيباً، بل هو مفخرة من مفاخرهم، فسوفهم مفللة من طول قراعها ومضاربتها للكثائب. ومثل هذا التعبير الذي سبق إليه يدل على أنه كان يدقق في معانيه وألفاظه جميعاً. ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم في يوم حليلة الذي هزم فيه المناذرة شر هزيمة، حتى لقد قتل المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة. وقد جعل سيوفهم المفللة تشق

(١) يوم حليلة: معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغساني على المنذر بن ماء السماء.

(٢) السلوقي: الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن. تقد: تشق. الصفاح: الحجارة ويريد خوذ الجنود. الجباحب: ذباب له شعاع بالليل.

(٣) الهام: جمع هامة وهي الرأس. سكناته: حيث يسكن ويستقر. الإيزاغ: دفع الناقة بولها. المخاض: الحوامل.

(٤) أنظر ديوان الأفوه ص ١٣. تمار: تعطي الميرة من لحوم القتلى.

(٥) أنظر الصناعتين للعسكري (طبعة الحلبي) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجاني (طبعة الحلبي) ص ٢٧٤.

الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة براءوسهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب، وسيولاً من الدماء كأنها إيزاغ المخاض. حتى إذا استوفي كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة في ميادين الحروب انتقل يصورهم في سلمهم متحدتاً عن شيمهم وشمائهم ودينهم ونعيمهم، يقول:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم	من الجود، والأحلام غير عواذب ^(١) .
ملحتهم ذات الإله، ودينهم	قويم فما يرجون غير العواقب ^(٢) .
رقاق النعال طيب حجزاتهم	يحيون بالريحان يوم الساسب ^(٣) .
تحبيهم بيض الولائد بينهم	وأكسية الإضريح فوق المشاجب ^(٤) .
يصنون أجساداً قديماً نعيمها	بخالصة الأردن خضر المناكب ^(٥) .
ولا يحسبون الخير لا شر بعده	ولا يحسبون الشر ضربة لازب ^(٦) .
حبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً	بقومي وإذ أعيت على مذاهبي ^(٧) .

وهو في أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا في غير هذا الموضع. ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة، ولعله يريد كنائسهم، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم. وتحول يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش، فهم رقاق النعال، وهم أعفاء، يحيون بالأزهار في عيد الساسب أو يوم الثعابين، وهو من أعياد

(١) الأحلام: العقول. عواذب: جمع عازب وهو الغائب.

(٢) ملحتهم: منزلتهم، ذات الإله: يقصد كنائسهم.

(٣) الحجزات: معاهد الثياب. طيب حجزاتهم: كناية عن عفتهم.

(٤) الولائد: الجواري والإماء. الإضريح: الحرير الأحمر. المضشاجب: جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب.

(٥) الأردن: الأكمام. وخلوصها: نصوع بياضها.

(٦) لازب: لازم.

(٧) بها: يريد قصيدته. أعيت مذاهبه عليه: ضاقت وسدت.

النصارى، وهم منعون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام. واد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شرّاً وبلاء فإن في الغساسنة خيراً كثيراً. ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت بسبب من أسر منهم عند ممدوحيه، وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم، وردوها فعلاً لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع.

وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة. وقد نفذ في أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة، إذ صور دينهم وترفعهم وما هم فيه من نعيم. وهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخواطرهم، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة، فكان طبيعياً أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق ممدوحيه من الأمراء.

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار، وكأن ذوقه الحضري هو الذي أعده لهذا التفوق، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف محاولاً أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه. وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها، مديحاً في ذلك قصائد طوالاً تعد من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته. وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجامحة، فإذا ذنبه يكبر في نفسه، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر، فما ينى يقدم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة. وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام، حفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده، وهو حسن تأت لا صغار نفس ولا مهانة، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء، وإنما هو الذوق الحضري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقترّب من ذوق العباسيين المتحضرين، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون في التنصل منه، وتقديم شتى المعاذير. وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه، وارجع إلى المعلّقة فتساره يستهلها بوصف أطلال دارمية، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء

إلى مقصده مفتنًا في تصويرها، ومشبهًا لها بصور تناضله كلاب الصيد، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجواري المنعمات، ثم مضى يستعطفه قائلاً:

فلا لعمر الذي مستحت كعبته	وما هريق على الأنصاب من حسد ^(١) .
والمؤمن العائدات الطير تمسحها	ركبان مكة بين الغيل والسعد ^(٢) .
ما قلت من سيئ مما أتيت به	إذن فلا رفعت سوطي إلى يدي
إلا مقالة أقوم شقيت بها	كانت مقاتلتهم قرعاً على الكبد ^(٣) .
إذن فعاقبني ربي معاقبة	قرت بها عين من يأتيك بالفند ^(٤) .
أنبت أن أبا قابوس أو عدنى	ولا قرار على زارٍ من الأسد ^(٥) .
مهلاً فداء لك الأقوام كلهم	وما أثمر من مالٍ ومن ولد ^(٦) .
لا تقذفني بركنٍ لا كفاء له	وإن تأثفك الأعداء بالرغد ^(٧) .

وواضح أنه يقسم له بإيمانه الوثنية المغلظة أنه برئ مما يتهم به من غدر، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق، ولتشل يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً. ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه، ويمثله أسداً جائعاً يزأر، وقد وقع منه موقع الفريسة. وسرعان

(١) مسحت: لمست ألتمس البركة. هريق: سال. الجسد: الدم. الأنصاب: الحجارة التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة.

(٢) المؤمن: الذي آمنها من الخوف. العائدات: اللاجئات إلى الحرم. تمسحها الركبان: يريد أنها تمسح عليها ولا تهبجها بصيد. الغيل والسعد: أجمتان بين مكة ومنى.

(٣) القرع: الضرب.

(٤) الفند: الكذب.

(٥) أبو قابوس: النعمان بن المنذر.

(٦) أثمر: أنمى وأجمع.

(٧) الكفاء: النظير والمثل. تأثف: تجمع. الرغد: الجماعات من الناس.

ما يعود إلى الاستعطاف، فالناس جميعاً من غساسة وغير غساسة فداء النعمان، بل إنه ليفديه بهاله وولده، ويقول له لا ترمني بما لا أطيق منك، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يشبوا له. ويخرج من ذلك إلى مديحه، ثم يعود إلى استعطافه فيقول:

فما الفرات إذا هب الرياح له	ترمى أواذيه العبرين بالزبد ^(١) .
يمده كل وادٍ مترع لجب	فيه ركام من الينبوت والخضد ^(٢) .
يظل من خوفه الملاح معتصماً	بالخيزرانة بعد الأين والنجد ^(٣) .
يوماً بأجود منه سيب نافلة	ولا يحول عطاء اليوم دون غد ^(٤) .
هذا الثناء فإن تسمع به حسناً	فلم أعرض - أبيت اللعن - بالصفد ^(٥) .
ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت	فإن صاحبها مشارك النكد ^(٦) .

وقد بدأ فشبهه بالفرات في كرمه، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه، وعمد إلى تفصيل الصورة، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من الأشجار والنباتات، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصماً في مركبه بسكانها يخشى الغرق. وقد نفى أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سيباً. ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة، ليدل على براعته. ونراه يعود إلى استعطاف النعمان، وأنه قدم له هذا الثناء لا يبغي به نواله، وإنما يبغي رضاه، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به في مهاوي النكد والهلم. ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية، وفيها يقول:

وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع^(١).

(١) أواذيه: أمواجه. العبرين: الشياطين.

(٢) مترع / مملوء. لجب: ذو صوت شديد. الينبوت: شجر. الخضدك المحطم من الأشجار.

(٣) الخيزرانة: سكان السفينة. الأين: التعب. النجد: الكرب.

(٤) سيب: عطاء. نافلة: زيادة يريد أن عطاءه وفر.

(٥) الصفد: العطاء. أبيت اللعن: تحية كانوا يحيون بها ملوكهم.

(٦) عذرة: اعتذار. مشارك النكد: حليف نكدوهم.

فبت كأبي ساروتني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم ناقع^(١).

يسهد من ليل التمام سليمها
لحلي النساء في يديه قعاقع^(٢).

تناذرها الراقون من سوء سمها
تطلقه طوراً، وطوراً تراجع^(٣).

أتاني- أبيت اللعن- أنك لمتني
وتلك التي تستك منها المسامع^(٤).

مقالة أن قد قلت سوف أناله
وذلك من تلقاء مثلك رابع

حلفت فلم أترك لنفسك رية^(٥)
وهل يأثم ذو أمة وهو طائع^(٦).

بمصطحبات من لصاف وثبرة
يزرن إلاًلاً، سيرهن التدافع^(٧).

سهماً تباري الريح خصوصاً عيونها
لهن رذايا بالطريق ودائع^(٨).

عليهن شعت عامدون لحجهم
فهن كأطراف الحنى خواضع^(٩).

لكفتني ذنب امرئ وتركته
كذي العري كوي غيره وهو راتع^(١٠).

فإن كنت لا ذو الضغن عني مكذب
ولا حلقي على البراءة نابع

- (١) في غير كنهه: كنهه: حقيقته، يريد على غير ذنب منه. راكس: واد في منازل بني أسد. الضواجع: منحى الوادي.
- (٢) ساروتني: لدغتنني. ضئيلة: أفعى دقيقة الجسم. الرقش: جمع رقشاء، وهي المنطقة نقطاً بيضاء وسوداء. ناقع: قاتل.
- (٣) يسهد: يمنع من النوم. ليل التمام: أطول ليالي الشتاء السليم: الملدوغ. قعاقع: أصوات. كانوا يجعلون الحلى في يد الملدوغ اعتقاداً منهم بأنها تشفيه.
- (٤) يقول من خبثها لا تحيب الراقي. بل مرة تحيب ومرة لا تحيب. تناذرها الراقون: خوف بعضهم بعضاً منها.
- (٥) تستك: تضيق.
- (٦) أمة هنا: دين.
- (٧) بمصطحبات: أقسم الإبل التي تصطحب في المسير إلى الحج. لصاف وثبرة: موضعان في ديار تميم. إلاًل: جبل بعرفة. التدافع: العجلة.
- (٨) سهماً: طائر شديد الطيران شبه به الإبل في سرعتها. خصوصاً: غائرات من شدة السير وإجهاده. رذايا: جمع رذية وهي الساقطة إعياء من الإبل. ودائع: مستودعات في الطريق. يريد ما سقط منهن إعياء فترك.
- (٩) شعت: جمع أشعث وهو المغبر من طول السفر. الحنى: القسي. الخواضع: المتطامنة رءوسها من الأرض.
- (١٠) العر: الجرب. وكانوا يداوون الإبل منه بكيها.

ولا أنا مأمون بشيء أقوله
وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المتأني عنك واسع^(١).
خطاطيف حجن في حبالٍ متينة
تمد بها أيدٍ إليك نوازع^(٢).
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة
وتترك عبداً ظالماً وهو ضالع^(٣).
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه
وسيف أعيرته المنية قاطع^(٤).
أبي الله إلا عدله ووفاءه
فلا النكر ولا العرف ضائع^(٥).
وتسقى إذا ما شئت غير مصرٍ
بزواء في حافات المسك كانع^(٦).

وهو في أول هذه الأبيات يقول له: إن وعيدك أتانى وأنا آمن في قومي وبينى وبينك منازل بني أسد ومن وراءهم، فأملت حفظاً للعهد وبت مسهداً، كأنها لدغتنى أفعى، وهي صورة بارعة، وقد أخذ يدقق حتى يجسم ألمه، فهي أفعى من الرقش تستودع السم في أنيابها الحادة، فمن عضته لم يطف به النوم من شدة الألم، وعلق عليه أهله الحلي والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ. وهي من الأفاعي الخبيثة التي قلما أجابت الرقي، وإن الرقاة والحاوين لبرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حماها. ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه، ويحلف له بأيمانه الوثنية، ويختار هنا الحلف بالإبل التي كانوا ينذرونها لأهنتهم، ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل، فهي تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام، حتى لكأنها تباري الريح، وقد أجهدت من السير وطول السفر، حتى إن بعضها سقط في الطريق إعياء، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً. وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسى الضامرة. وهذا اليمين العظيم يقسم به

(١) المتأني: المكان النائي البعيد.

(٢) مرشرحه.

(٣) ضالع: مائل عن الحق، ويروي ظالع وهو الجائر المذنب.

(٤) الربيع هنا: الغيث. السيب: العطاء.

(٥) النكر: المنكر. العرف: المعروف.

(٦) مصرد: من التصريد وهو الشرب دون الري: زوراء: كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها. كانع: لاصق.

متنصلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوهم، وكان حرياً به أن ينزل سخطه لا عليه، وإنما على هذا الواشي وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوي من الجرب، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كي ولا أذى. وهي صورة أخرى بارعة. ويقول إن كنت لا تكذب من يضطغن على ولا تصدق يميني ولا خلفي فما أحراني بالرهبة منك والخوف من بطشك، ويودع ذلك صورة رائعة، إذ يتخيل النعمان كالليل، لا مفر لشخص من أن يطبق عليه. وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التي يرسل بها إليه ليلين قبله عليه كأنها خطاطيف معوجة ثبتت في حبال متينة، وأيدي النابغة تمد بها إليه، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه. ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده، بينما من يختانون هذا العهد يقربهم ويرعاهم، ويختتم اعتذاره إليه بمدحهم والثناء عليه، فهو غيث منعش لأولياؤه وسيف مصلت على أعدائه، وقد براه الله لرعيته عادلاً وفيّاً، لا يلقي المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر، يجزي على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم، فهو يشرب في كأس مفضضة مزج ما فيها بالمسك والطيب. ومن رائع اعتذاراته إليه قوله:

أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني	وتلك التي أهتم منها وأنصب ^(١) .
فبت كأن العائدات فرشني	هراساً به يعلى فراشي ويقشب ^(٢) .
حلفت فلم أترك لنفسك ربية	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة	لمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولكنني كنت امرألي جانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب ^(٣) .
ملوك وخوان إذا ما أتيتهم	أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم	فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا

(١) أنصب: أجهد جهداً شديداً.

(٢) الهراس: شجر كثير الشوك. العائدات: الزائرات في المرض. فرشني: بسطن لي. يقشب: يجدد.

(٣) جانب من الأرض: متسع. مستراد: يذهب فيه الإنسان كما يريد. كناية عن إكرام الغساسنة له في ديارهم.

وإنك شمس والملوك كواكب
إذا طلعت لم يبد منها كوكب
فلا تتركني بالوعيد كأنني
إلى الناس مطلي به القار أجرب^(١).
ألم تر أن الله أعطاك سورة
تري كل ملكٍ دونها يتذبذب^(٢).
ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمه
على شعثٍ، أي الرجال المهذب^(٣).
فإن أك مظلوماً فعبداً ظلمته
وإن تك ذا عتبي فمثلك يعتب^(٤).

وواضح أنه يصور نفسه في أول هذه الآيات حين بلغه لوم النعمان بمريض، قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه. ويحلف له بأنه يرى مما اتهمه به الواشي، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة، فأكرموه وحكموه في أموالهم، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويعدق عليهم من نواله. وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه، وما يلبث أن يعرفه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم، يتوارون في ضيائه ومجده، وهي صورة باهرة لا شك أنها تركت أثراً بليغاً في نفس النعمان. وقد تلاها باستعطافه، فصور له ما صبه عليه من غضب بالقار يصب على الأجرب فيتحاماه الناس. ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته، بل يضطربون دون سمائه. ويقول له: هب أن مديحي للغساسنة هفوة واعف عني، فإن لكل شخص هفوة، وأين الأخ الذي لا يهفو ولا يعثر؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياه ومن يخلصون له الولاء، فإن ظلمتني قبلت ظلمك، وإن أسدلت على عفوك ورضاك فليس غريباً منك، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل.

(١) القار: القطران، وكانوا يداوون به الإبل الحربي.

(٢) السورة: المنزلة. يتذبذب: يضطرب ولا يصل إليها.

(٣) شعث: فساد. تلمه: تجمعه وتضمه.

(٤) عتبي: رضا. يعتب: يعطي العتبي والرضا.

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة في اعتذاره ومديحه جميعاً، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شعباً لم يسلكها أحد من قبله. والذي لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة، يقوده في ذلك ذوقه الحضري الذي نصب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجرمًا لا يغتفر في حق النعمان بن المنذر، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية. وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه، وعلى هديه تبعه الشعراء في العصور الإسلامية متخذين منه قدوتهم.

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغساني، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشي، ويخرج من ذلك إلى الرثاء، فيقول إنه أحزنه نعي النعمان وإن كان سر قيساً لما أثخن فيها بحروبه. وهو يعبر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل، ومن ثم لا يشمت بموت النعمان كما شمتت ذبيان وغيرها من قبائل قيس، بل إنه ليدعو على أعدائه أن يهنتوا بمصرعه، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها في القبائل. ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والظن بسابق الود، فقد ظنوا أنه لن يرثي النعمان ولن يذكره، ويقول كيف لا يذكره، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال في فؤاده، ونحسن أنه شعر قبله وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تحب. وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه:

سقى الغيث قبرابن بصرى وجاسم	بغيث من الوسمى قطر ووابل ^(١) .
ولا زال ريحان ومسك وعنبر	على منتهاه دمية ثم هاطل ^(٢) .
وينبت حوذاً وعوفاً منوراً	سأتبعه من خير ما قال قائل ^(٣) .

(١) بصرى وجاسم: موضعان بالشام. الوسمى: أول المطر. وابل: غزير.

(٢) منتهاه: قبره. الديمة: المطر ليس فيه برق ولا رعد. الهاطل: المطر المتتابع.

(٣) الحوذاً والعوف: نباتان طيباً الرائحة.

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث، ولا يكتفي بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر، ولا تزال تمده الأمطار بما ينبت عنده النباتات العاطرة من مثل الحواذن والعرف. وحقاً كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور من يفقدونهم، ولكنه مد أطناب الصورة بذوقه الحضري وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر، ودعا للأرض أن تنبت من حول النعمان الأزهار والرياض. وهي صورة حضارية تقابل أختها التي مرت في مديحه لأخيه عمرو.

وقد قدم لهذه المراثية كما قلنا بالنسيب، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسياً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً في مقدمات قصائدهم، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم. ومن نسيبه قوله في فاتحة معلقته التي أودعها إحدى اعتذاراته:

يا دار مية بالعلياء فالسند	أقوت وطال عليها سالف الأبد ^(١) .
وقفت فيها أصيلاً أسائلها	عيت جواباً وما بالربع من أحد ^(٢) .
إلا الأواري لاياً ما أبينها	والنوى كالحوض بالمظلومة الجلد ^(٣) .
ردت عليه أقاصيه ولبده	ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد ^(٤) .
خلت سبيل أتى كان يجبسه	ورفعته إلى السجفين فالنضد ^(٥) .
أمست خلاءً وأمسى أهلها احتملوا	أخنى عليها الذي أخنى على لبد ^(٦) .

(١) العلياء والسند: موضعان. أقوت: خلت. الأبد: الزمن.

(٢) أصيلاً: تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران. عيت: عجزت.

(٣) الأواري: الأوتاد وما يربط بها من جبال. النوى: حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول. المظلومة: الأرض صعبة الحفر. الجلد: الصلبة.

(٤) لبده: جمعه. الوليدة: الأمة. الثأد: الثري الندي.

(٥) خلت: شقت. الأتى: السيل. رفعته أعلته. السجفان: مصراعاً الستر في الخيمة. النضد: المتاع.

(٦) أخنى عليها: أصابها بأفات الدهر. لبد: نسر للقمآن يقولون إنه عمر طويلاً.

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعا لندائه ولا رداً عليه، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل. ويقول إنه وقف بها وقف بها وقت الأصيل يسائلها ولا من مجيب، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النوى. ويطيل في وصفه ليظهر قدرته الخيالية، فقد حفرتة جارية في أرض صلبة، وما زالت ترد أتربته على حوافيه، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر. وقد أبدع في تسمية الأرض التي لم تحفر بالمظلومة، وهو أول من أعطاها هذا الاسم، كأنه أحس إزاء الصخر الذي لا يحرك ولا يزرع بضرب من الظلم. وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التي رحل عنها أهلها بمظهر بال، فقد جرت الأيام عليها أذيال اللبي والعفاء، كما جرتها من قبل على لبد نسر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته.

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف، ولكن ليس فيه عاطفة قوية، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حباً، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث. وقد أوشك في مقدمته لا اعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكده يقول:

فكفكفت منى عبرة فرددتها على النحر منها مستهل ودامع^(١).

حتى أمسك نفسه، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب. ونراه في معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها، ثم يأخذ في تشبيهها بثور وحشي، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك، يقول:

من وحش وجرة موشى أكارعه طاوى المصير كسيف الصيقل الفرد^(٢).
أسرت عليه من الجوزاء سارية تزجى الشمال عليه جامد البرد^(٣).

(١) كفكفت الدمع: مسحه. المستهل: السائل. الدامع: الذي يترقق في العين قبل أن يسقط.

(٢) وجرة: موضع بنجد. موشى أكارعه: مزينة قوائمه بالنقط. طاوي المصير: ضامر البطن. الصيقل: الحداد. الفرد: المسلول.

(٣) أسرت: جاءت ليلاً. الجوزاء: برج في السماء. سارية: سحابة. تزجى: تدفع الشمال: ريح الشمال.

فارتاع من صوت كلابٍ فبات، له	طوع الشوامت من خوف ومن صرد ^(١) .
فبتهن عليه واستمر به	صمع الكعوب بريات من الحرد ^(٢) .
وكان ضميران منه حيث يوزعه	طعن المعارك عند المحجر النجد ^(٣) .
شك الفريضة بالمدى فأنفذها	طعن الميطر إذ يشفي من العضد ^(٤) .
كأنه خارجاً من جنب صفحته	سفود شرب نسوه عند مفتاد ^(٥) .
فظل يعجم أعلى الروق منقبضاً	في حالك اللون صدق غير ذي أود ^(٦) .
لما رأي واشق إقعاص صاحبه	ولا سبيل إلى عقل ولا قود ^(٧) .
قالت له النفس إني لا أرى طمعاً	وإن مولاك لم يسلم ولم يصد ^(٨) .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط، وهو ضامر كالسيف المسول، يجري في الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماء من بردٍ لا ينقطع. ولم يلبث أن دعر دعرًا شديدًا إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه، فأسرع في جريه، ولمحه القانص فبعث عليه كلابه، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغي من سرعة، ولكن الكلاب لحقت به، وكان أول ما لقيه منها ضميران، ونشب بينهما صراع عنيف، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء، نفذت إلى ظاهر صدره، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه. ولما رأي واشق ما أصاب أخاه وأنه لن

(١) الشوامت: القوائم ويريد بطوعها إسرعها به. والصد: البرد.

(٢) استمر به: اشتد به وقوى. صمع: ضوامر. بريات: بريئات. الحرد: العرج.

(٣) ضميران: اسم كلب للصائد. يوزعه: يغريه. المحجر: حمى القبيبة النجد: الشجاع.

(٤) الفريضة: لحم الكتف. المدري: القرن. الميطر: معالج الحيوان. العضد: داء يلم بكتفها.

(٥) السفود: الحديد التي يشوى عليها اللحم. نسوه: تركوه. مفتاد: موضع النار الذي يشوى فيه.

(٦) يعجم: يعلك. صدق: صادق في الطعن. أود: عوج.

(٧) واشق: اسم كلب آخر للصائد. الإقعاص: القتل السريع. العقل: الدية. القود: القصاص.

(٨) المولى: الناصر. يسلم هنا: يأسر.

يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان ينبغي، فدون بغيته الموت والهلاك.

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسب السابق، لما بث النابغة في الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه، فالثور خائف يترقب، والكلاب طامعة تتربص. وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه. ويقتل ضمران. وينظر أخوه واشق فيري أن القصاص غير ممكن، وتحذثه نفسه بأنه يطمع في غير طائل، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة، وقد قذفت به في مهاوي اليأس والقنوط. ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتحسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأيات. وفي ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بني أسد من حلف وبينها وبين بني عامر من حرب، وهو في هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه في المديح والاعتذار والرثاء، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتهادى فيه، وخاصة في الهجاء، وقرأ له هذه الأبيات في عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجو:

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مطية الجهل السباب

فكن كأبيك أو كأبي براء توافقك الحكومة والصواب^(١).

ولا تذهب بحلمك طاميات من الخيلاء ليس هن باب^(٢).

وإنك سوف تحلم أو تنأى إذا ما شبت أو شاب الغرب^(٣).

وهي أبيات تخلو من الإقذاع في الهجاء المعروف عند الجاهليين، وهو يعمد فيها بذوقه الحضري إلى التهكم به والسخرية منه، فيصفه بالحمق، ويصغر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه، وينهاه عن الخيلاء، ويؤمله في أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً. وواضح أن الشطر الثاني في البيت الأول حكمه سائرة، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتي بها في ثنايا شعره وقصيده،

(١) أبو براء: عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل.

(٢) طاميات: فائضات ومرتفعات. ليس هن باب: لا مخرج منهن.

(٣) أو شاب الغرب: ضرب النابغة ذلك مثلاً لعامر وأنه لن يحلم أبداً.

فتكون شطراً كهذا الشطر، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها، ومن رائعها قوله:

ولست بمستبقي أcha لا تلمه على شعبي، أي الرجال المذهب

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظره ودقة حسه.

وجوانب كثيرة في شعر النابغة تفصح عن مهارته في صوغ القصيدة ونظمها، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صورة ومعانيه، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشي، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة. وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسي يقولون: إنه "كان أحسن الجاهلين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً"^(١). على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يقوى في شعره محتجين على ذلك بيت في قصيدة المتجردة التي وضعت عليه، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروي، بينما رويها المطرد مكسور، ورووا في ذلك قصة، هي أن النابغة قدم يثرب، فعاب عليه أهلها ذلك في قصيدته المذكورة، فلم يأبه^(٢). ولكن القصيدة كما قدمنا مما نحل على النابغة، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة.

وإذا كان النابغة يعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه، وهي عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره، ويتضح ذلك في تنسيقه لموضوعات بعض قصائده، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة، حتى إذا أتم هذا الوصف قال:

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١٠٨/١.

(٢) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١٠.

وكذلك صنع في اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجًا متصلًا، إذ قال إنه كف عن التشبيب والحب لشيئه ولما يشغله من هم، هو غضب النعمان، على هذه الشاكلة:

وقد حال هم دون ذلك شاغل مكان الشغاف بتغيه الأصابع^(١).

وعيد أبى قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع

وهذه العناية البالغة بالمعاني والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يطوي فيها من تشبيهات واستعارات؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب، بل نلاحظ أيضًا القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التي تخلب لبه، وخاصة حين يتنصل للنعمان بن المنذر من ذنبه، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعطفًا مسترحمًا. وكان له ذوق جيد في اختيار صوره ومعانيه جميعًا، وهو ذوق هذبته الحضارة التي نعم بها في الحيرة وبلاط الغساسنة، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة، وإذا هو يأتي في مديحه وراثه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين. وليس ذلك فحسب، فإنه يفتح صفحة جديدة هي صفحة الاعتذاريات والاستعطافات وما يجري فيها من الحس المرفف والشعور الدقيق، وتسربت من ذلك أسراب في جميع موضوعات شعره، حتى الهجاء.

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التي تتمثل في وقاره وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحفاظه الشديد على العهد وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التي أحلتها في العصر الجاهلي وأسبابها، إذ جعوه محكمًا بين الشعراء في عكاظ كما قدمنا، وكأنه في رأيهم الشاعر الفذ الذي لا يشق غباره والذي لا ينطق عن هوى أو عصبية، ومن ثم كان حكمه قاطعًا لا يقبل طعنًا ولا نقضًا.

(١) الشغاف: حجاب القلب.